ومن معانى التسليم أن نقول : السلام عليك أيها النبى كما نقول فى التشهُّد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى : السلام عليك يا رسول الله أى : جعل الله لك وقاية ، فلا ينالك أحد بسوء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾

الإيذاء : إيقاع الألم من المؤذِى للمؤذَى ، سواء أكان الإيذاء بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق سبحانه وتعالى . إذن ما معنى : يؤذون الله ؟

قالوا : الله تعالى لا يُؤذَى بالفعل ؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضاب الله تعالى بالقول الذى لا يليق به سبحانه ، كقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران] وبعضهم أنكر وجود الله .

وقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

وبعضهم يسُبُّ الدهر ، والله يقول فى الحديث القدسى : « يؤذينى عبدى ، وما كان له أنْ يؤذينى ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أُقلِّبُ الليل والنهار »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٢٦ ، ٦١٨١ ، ٧٤٩١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٣٨ ، ٢٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهل الزمن له ذَنْب فى الأحداث التى تؤلمك ؟ الزمن مجرد ظرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن : لا تسبُّوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغى أنْ ننظر فيه : أهو كذب وبهتان ؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل ؟ وقد يُؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تُؤذَى منها ، وفى هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسْلَم أنت من شرها وتسلم من ألمها .. فهذه الأقوال منهم فى الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف ؟

الحق - سبحانه وتعالى - حينما استخلف الإنسان فى الأرض خلق له الكون قبل أنْ يخلقه فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فيه مُقوِّمات بقاء الحياة ، ومُقوِّمات بقاء النوع ، ثم أعدَّ له أيضاً قانون صيانته ، بحيث إنْ أصابه عطب استطاع أنْ يصلحه ، هذا القانون هو منهجه سبحانه المحفوظ فى كتابه ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن]

فقانون الصيانة فى القرآن موجود قبل أنْ يخلق الإنسانَ ؛ لأن الإنسان خَلْق الله وصَنْعته خلقه الله فى أحسن تقويم ، وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أنْ يظل هكذا سويَّ التكوين فى كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته ، فإنه ولا شكَّ لا بُدَّ أنْ يغضب الله ، لأن الله يريد أنْ تظلَّ صنعته جميلة ، كما أبدعها سبحانه .

إذن : فالذين أنكروا وجود الله ، أو الذين أشركوا به ، والذين

قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » أو قالوا : الملائكة بنات الله ... إلخ هذه الأقوال التى ترتب عليها غضب الحق سبحانه ؛ لأنه خليفته فى الأرض لم يُؤدِّ المطلوب منه على حَسْب منهج الله .

ونقول لهؤلاء : إياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم خرجتم من قبضة الحق سبحانه ، بل أنتم فى قبضته ، وتحت مشيئته ، ولو شاء سبحانه لقهركم على طاعته ، أو خلقكم على هيئة الصلاح لا تأتى منكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به، مَنْ شاء آمن ، ومَنْ شاء كفر ، ليعلم مَنْ يقبل عليه بحب لا بقهر .

والدليل على ذلك أنكم مخلوقون ، على هيئتين . هيئة لكم فيها اختيار وهى التكاليف ، وهيئة مقبوضين فى قبضة الحق سبحانه وهى القضاء ، فما دمتم تعودتم التمرد على التكاليف ، فلماذا لا تتمرَّدُون على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً ؟

ومع ذلك ما دُمْتَ قد اخترْتَ الكفر وأنا رَب ، ومطلوب منى أنْ أعينك على ما تحب ، فسوف أختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذى تحبه . إذن : أنا جئت على مرادك مما يدل على أن كفرك بى لا يضرنى ولا يؤذينى .

وقد ورد فى الحديث القدسى : (يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى)[1] .

وإنْ كانت لكم منطقة اختيار فى الدنيا هى أمور التكاليف ، فسيأتى يوم القيامة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيارَ لأحد فى شىء

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/١٦٠) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص ١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه الطويل وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى قطعة منه فى شرح الأحاديث القدسية بتحقيقى (المجلد ٢/ص ٣ - ٤٠) نشر : دار الروضة ـ القاهرة .

يوم يقول الحق سبحانه ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. ⟨١٦⟩﴾ [غافر] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⟨١٦⟩﴾ [غافر]

هذا فى معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء فى حقِّ سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أنْ يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله : كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدَّى الإيذاء إلى الفعل الذى أصاب رسول الله وآلمه بالفعل .

ألم يُرْمَ بالحجارة حتى دَمِيتْ قدماه فى الطائف[1] ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سَلاَ البعير فى مكة[2] - أى سَقَط البعير - ألم تكسَر رباعيته يوم أحد[3] ويُشَجُّ ويسيل دمه ﷺ ؟

فرسول الله ناله مع ربه - عز وجل - إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشرى فيه إيلام ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) « أن أهل الطائف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة » . أما إدماء رجليه ﷺ فقد ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) فقال « قعدوا له صَفَّيْن على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجليه » .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢٧٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال « بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش . وثمَّ سلا بعير (السلا هو لفافة من الجلد تكون حول الجنين فى البطن) فقالوا : من يأخذ سلا هذا الجزور أو البعير فيقذفه على ظهره ، فجاءه عقبة بن أبى معيط فقذفه على ظهر النبى ﷺ ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك » . وهو فى صحيح البخارى (٣١٨٥) ، وكذا فى صحيح مسلم (١٠٨) كتاب الجهاد والسير .

(٣) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (ص ١٤٢٨) غزوة أحد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ جعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : بمخالفة ما جاء به ، أو بأنْ تتهموه بما ليس فيه ، أو تتعرَّضوا له بإيلام حسى ، ثم لم يخص من ألوان الإيذاء إلا مسألة الأزواج ، فقال : ﴿ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] وذكر هذه المسألة بالذات صراحةً مراعاة لطبيعة النفس البشرية ، فقد قلنا : إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبابه بأغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن ينظر أحد إلى زوجته ، يحميها ويغَارُ عليها من مجرد النظر .

لذلك فإن سيدنا حذيفة ، وكان يحب امرأته ، فقال لها : ألاَ تحبين أن تكونى معى فى الجنة ؟ فقالت : بلى ، فقال لها : إذن إذا متُّ فلا تتزوجى بعدى - فهو يغار عليها حتى بعد موته - لأنى سَمعت رسول الله يقول : « المرأة لآخر أزواجها »[1] .

لكن هذا الحديث وُوجه بحديث آخر لما سُئل رسول الله : أىُّ نساء الرجل تكون معه فى الجنة ؟ فقال : « أحسنهن خلُقاً معه »[2] .

وقد رأى البعض تعارضاً بين هذين الحديثين ، والواقع أنه ليس بينهما تعارض ، لأن الآخرية هنا لا يُراد بها آخرية الزمن ، إنما آخرية الانتقال ، كما لو تمتعتَ برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ، فلما ذكَّرته بها قال : كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى .

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤١٠) وعزاه للطبرانى عن أبى الدرداء وللخطيب عن عائشة . قال : وهذا هو الصحيح . وقيل : لأحسنهم خلقاً . وقيل : تُخيَّر .

(٢) أخرج ابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٣/٢٦٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة ، إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : أى رب ، إن هذا كان أحسنهم خلقاً معى فى دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ، ذهب الخلق الحسن بخير الدنيا والآخرة . قال ابن عدى : هذا حديث منكر . قال ابن القيم فى « حادى الأرواح » (ص ٢١٦) : « ضعَّفه أبو حاتم » .

فالمعنى : تكون لآخر أزواجها فى المتعة ، وإن كان مُتقدِّماً بحُسْن الخلق ، إذن : فالمعنيان متفقان ، لا تعارضَ بينهما .

ومسألة غَيْرة الرجل على المرأة لها جذور فى تاريخنا وأدبنا العربى ، ومن ذلك قول الشاعر(١) :

أهِيمُ بِدَعْد مَا حَيِيتُ فإن أمُتْ فوَا أسَفَى مَنْ ذَا يهيمُ بهَا بَعْدى

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت ، لكن يُؤْخذ عليه أنه شغل بمن يحل محله فى هيامه بمحبوبته ؛ لذلك كان أبلغ منه قَوْل الآخر(٢) :

أهِيمُ بدَعْد مَا حَيِيتُ فإن أمُتْ فَلاَ صَلُحَتْ دَعْدٌ لذِى خُلَّة بَعْدى

إذن : فهذه الغيرة مراتب ودرجات .

ويُحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين ـ أظنه الهادى ـ كان يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفى خلوة من خلوات الهيام والعشْق قال لها : عاهدينى ـ لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام ـ إذا أنا متُّ أن لا تتزوجى بعدى ، وفعلاً أعطتْه هذا العهد ، فلما مات الهادى لَم تلبث أن نسيَتْ غادر عشقها للهادى ، ونسيتْ حُزْنها عليه ـ وهذا من رحمة الله بنا أن كل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر .

بعدها تزوجت غادر من أخى الهادى ، وفى يوم من الأيام استيقظت فَزِعة صارخة ، حتى اجتمع عليها مَنْ فى القصر ، وسألوها : ماذا بك ؟ قالت : جاءنى الهادى فى المنام ، وقال لى :

خَالَفْتِ عَهْدى بَعْدَمَا جَاوَرْتُ سُكَّانَ المقَابرْ

ونكحْتِ غادرةً أخِى صَدَقَ الذى سَمَّاك غَادرْ

---

(١) هو : نُصيب بن رباح ، أبو محجن ، توفى عام ١٠٨ هـ . مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر له شهرة ذائعة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) هو : عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، وقد عاب بيت نصيب السابق.

لاَ يَهْنـك الإلْفُ الجـديدُ ... ولا عَــدتْ عَـنْك الدَّوائرْ
ولَحقتِ بى مُنْذُ الصَّباح ... وصِــرْتِ حَيْثُ ذهبْتُ صائر

وما كادت تنتهى من قولها حتى لفظتْ أنفاسها الأخيرة ، وماتت .

لذلك ، فـالحـق سـبـحـانه يراعى هذه الغـرائـز الإنسـانيـة وهذه الطبيعة ، ألا ترى أن عدَّة المتوفَّى عنها زوجُها كانت سَنَةً كاملة ، كما فى قوله تعالى(١) : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .. (٢٤٠) ﴾ [البقرة]

ثم جُعلَتْ عـدَّة المتوفى عنهـا زوجها أربعـة أشـهر وعـشرة أيام احتراماً لهذه الغَريزة فى المرأة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الجزاء العادل لمن يؤذى الله ويؤذى رسول الله ، فيقول سبحانه : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٥٧) ﴾ [الأحزاب] أى : طردهم من رحمته ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب]

ثم يعطينا الحق سـبـحـانه إشـارةً إلى أن هذا الجزاء العـادل الذى أعدَّه لمن يؤذى الله ورسوله ليس تعصُّباً لله ، ولا تعصباً لرسول الله ، بدليل أن الـذى يؤذى مـؤمـناً أو مـؤمـنة لا بُدَّ أن يُجــازَى عن هذا الإيذاء ، فسوَّى المـؤمن والمؤمنة فى إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وبإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾

(١) قال الاكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها . وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] نقل ابن كثير فى تفسيره (١/٢٩٦) أن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : قد نسختها الآية الاخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا بن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه .

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خَصَّ هذا الإيذاء بقوله ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] لأن هناك إيذاءً مشروعاً أوجبه الله للذين يخرجون على حدوده ، فحَدُّ الزنا والقذف وشرب الخمر .. إلخ كلها فيها إيذاء للمؤمن وللمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يُعاقب مَنْ قام به ، كما في إيذاء الله ورسوله .

لذلك يقول تعالى في اللذين يأتيان الفاحشة : ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا .. (١٦)﴾ [النساء]

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبةً لمن يتعدَّى حدود الله ، وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] بكى فقال له جليسه : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنني آذيتُ المؤمنين والمؤمنات ، قال : يا أمير المؤمنين إنك تؤذي لتُعلِّم ولتُقوِّم والله تعالى أمرنا أن نرجم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسُرَّ[1] .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه في الحدود : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢)﴾ [النور]

لأن الرأفة في حدود الله رحمة حمقاء ، ولسنا أرحم بالخَلْق من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٥٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يحوطهم ويغضب لهم . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أُبيّ بن كعب رضي الله عنه فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ، إني قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت مني كل موقع ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] والله إني لأعاقبهم وأضربهم ، فقال له : إنك لست منهم ، إنما أنت معلم . وانظر تفسير القرطبي (٨/٥٥٠٩): « إنما أنت مُعلِّم ومُقوِّم » .

الخالق سبحانه ، والله تعالى حين يُضخِّم العقوبة ويؤكد عليها ، إنما يريد ألاَّ نجترىء على حدوده ، وألاَّ نُعرِّض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أنْ تسأل حين تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

كيف تكون الحياة فى القتل ؟ نعم ، فى القصاص حياة ؛ لأنك حين تعلم أنك إنْ قتلتَ تُقتَل ، فلن تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حَمَى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعَدُّ هذا إيذاءً ؟

ومعنى ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] أى : بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة ﴿ اكْتَسَبُوا .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] قلنا : هناك فَرْق بين : فعل وافتعل ، فعل أى الفعل الطبيعى الذى ليس فيه مبالغة ولا تكلُّف ، أما افتعل ففعْل فيه تكلُّف ومبالغة ، كذلك كسب واكتسب ، كسب : أنْ تأخذ فى الشيء فوق ما أعطيتَ ، كما لو اشتريت بخمسة وبعْتَ بسبعة مثلاً فهذا كسْب ، أما اكتسب ففيها زيادة وافتعال .

لذلك تجد فى العُرْف اللغوى العام أن كسب تأتى فى الخير واكتسب تأتى فى الشر ، مثل قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] لها ما كسبتْ تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدَّيْن .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتى طبيعياً تلقائياً ، أما الحرام فيحتاج إلى محاولة وافتعال واحتياط ، فحين تنظر مثلاً إلى زوجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً ، أما حين تنظر إلى امرأة جميلة فى الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع أحد على فعْلتك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام .

وفى آية واحدة فى كتاب الله جاء الفعل كسب فى الشر ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (٨١)﴾ [البقرة]

فلماذا ؟ قالوا : لأن الآية فيمَنْ تعوَّد السيئات ، وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسَهُلَتْ عليه حتى صارت عنده كالحلال ، يفعله بلا تكلُّف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجَاهر الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « كل أمتى مُعَافَى إلا المجَاهِرين »[1] وفيه : « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه » .

وهذا الذى يُسَرُّ بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أنْ يستر حركات انفعاله فى الحرام ، كأنها الحلال بعينه ؛ لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكأن السيئة أصبحت مَلَكةً .

أذكر بمناسبة التكلُّف والافتعال فى الحرام رجلاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ، ذهب إلى السوق لشراء بقرة ، وأخذ النقود فى جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رأوه فى السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضالتهم ، فكيف احتالوا ليسرقوه ؟ لطخ أحدهم كتفه بروث البهائم ، ثم احتكَّ بالشيخ مصطفى ، حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ ينظف ملابسه من الروث ، ونسى مسألة النقود التى فى جيبه فسرقوه .

وكما يأتى الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتى مُعافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ومبالغة تناسب افتعال الفعل ؛ لذلك يقول سبحانه في عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا .. (٥٨) ﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ حملوا ، وفَرْق بين حمل واحتمل ، حمل تُقال لما فى طاقتك حَمْله ، إنما احتمل يعنى فوق الطاقة ، وإنْ حملْته تحمله بمشقة ، فالجزاء هنا من جنس العمل ، فكما تفاعلْتَ وتكلَّفْتَ فى المعصية كذلك يكون الجزاء عليها .

﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ [الأحزاب] البهتان : أن تقول فى غيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أمَّا الإثم : فأنْ ترتكب ذنباً فى حقه بأن تؤذيه بصفة هى فيه بالفعل ، لكنه يكره أنْ تصفه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد فى الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أرأيتَ إنْ كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبْتَهُ ، وإنْ لم يكن فيه ما تقول فقد بَهته »(١) أى : كذبْتَ وافتريْتَ عليه .

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ [الأحزاب] يعنى : جَلِيٌّ واضح ؛ لأن الوضوح فى الإثم إما أن يكون بأنْ تُقر أنت به وتعترف بذنبك ، وإما أنْ يكون بالبينة ، فلو سألناك : أنت قلت لهذا الرجل يا أعمى ، أتحب أنْ تُوصَف أنت بصفة تكرهها ؟ لا بُدَّ أنْ تقول : لا أحب . إذن : فالإثم هنا واضح ، ويكفى إقرارك به .

وينبغى أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علَّمَنَا سيدنا رسول الله ، فكما أنه لا يُرضيك أنْ يسرق الناس منك ، كذلك أنت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤ ، ٣٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكركَ أخاك بما يكره . قيل : أفرأيتَ إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

لا تسرق منهم ، وكما يُؤذيك الإثمُ كذلك يؤذيهم .

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى أدب آخر من آداب الأسرة ، فيقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾

نلحظ أن الأمــر توجَّــه أولاً لأزواج النبى ، ثم لـبناته ﷺ ، وهذا يعنى أن رسول الله لا يأمر أمتـه بشىء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم بشىء بدأ فيه بأهل بيته ، وهذا أدْعَى لقبـول الأمر وتنفيذه ، فقبل أنْ آمركم أمرت نفسى فلم أتميز عنكم بشىء .

لذلك جـاء في سيـرة القائد المـسلم « طارق بن زياد »[1] أنه لما ذهب لفـتح الأندلس وقف بجنوده على شاطىء الـبحر ، وأعـداؤه على الشاطىء الآخـر ، ثم قال للجنود : أيها الناس أنا لن آمـركم بأمر أنا عنه بنجوى ، وإننى عند ملتـقى القوم سابقكم ، فمبارز سـيِّدَ القوم ، فإنْ قتلتُه فقد كُفيتم أمره ، وإنْ قتلنى فلن يعوزكم أمير بعدى .

أى : أننى سابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم وأجلس أتفرج وأرقب ما يحدث ، يعنى : أنا لا أتميز عنكم بشىء .

---

(١) طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصـله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصيـر ، ولى طارقاً ١٢ ألفـاً معظمهم من البـربر ، فنزل بهم البحـر واستولى عـلى الجبل (جبل طارق الذى سـمى باسمـه) ، وواصل فتوحـه فى الأندلس مع موسى بن نصـير ، مولده عام ٥٠ هـ وفاته ١٠٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣/٢١٧] .

وبهذه المساواة أيضاً ساد عمر ـ رضى الله عنه ـ القوم وقاد العالم وهو يرتدى مُرقَّعته بالمدينة ؛ لذلك لما رآه رجل وهو نائم تحت شجرة كعامة الناس قال : حكمتَ فعدلْتَ فأمنْتَ ، فنمتَ يا عمر .

وكان ـ رضى الله عنه ـ إذا أراد أنْ يأخذ قراراً فى أمر من أمور رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتى أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع ومن مراكز القوى التى تحيط به ؛ لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم : أنا اعتزمْتُ أنْ أصدر قراراً فى كذا وكذا ، فوالذى نفسى بيده مَنْ خالفنى منكم إلى شىء منه لجعلته نكالاً للمسلمين ، أيها القوم إياكم أنْ يدخل عليكم مَنْ يدَّعى صلته بى ، فتعطونه غير حق مَنْ لم يعرفنى ، والله إنْ فعلتُم لأجعلنكم نكالاً للمسلمين .

وورود النص القرآنى بلفظ ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النصَّ الذى جاءه ، والصيغة التى تكلَّم الله بها دون أنْ يُغيِّر فيها شيئاً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول : يا أيها النبى أزواجك وبناتك يدنين عليهن من جلابيبهن . إنما نقل النص القرآنى كما أُنزل عليه ؛ ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبلِّغ عن الله ، فمَنْ أراد أنْ يناقش الأمر فليناقش صاحبه .

وأزواج النبى ﷺ ساعة نزلتْ عليه هذه الآية كُنَّ تسعة أزواج ، كرَّمهن الله وخيَّرهن فاخترْنَ رسول الله ، كان منهن خمس من قريش هُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وثلاث من سائر العرب هُنَّ : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجُويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخى موسى ـ عليهما السلام ـ هى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب .

أمـا بنات رسول الله ، فـرسول الله أنجب البـنين والبنات : البنون ماتوا جميعاً فى الصِّغَر ، أما البنات فأبقاهُنَّ الله حتى تزوَّجْنَ جميعاً ، وهُنَّ : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وأصغـرهن فاطمـة ، وهى الوحيـدة التى بقيتْ بعـد موت سـيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْنَ فى حياة رسول الله.

ولفـاطمة قـصة فى الضـحك والبكاء ؛ لذلك بعض العـارفين كـان يقـول فى قــوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم] أن السيدة فاطمة حينما سُئلت ما الذى أبكاكِ وما الذى أضحككِ ؟ قالت : لأننى لمـا دخلتُ على أبى وهو مـريض قـال لى : إن هذا هو مـرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصـرفتُ فأشار إلىَّ وقال لى : يا فاطمة ستكونين أول أهل بيـتى لحوقاً بى فـضحكت . لذلك لم تمكث فـاطمة بعد رسـول الله إلا ستة أشـهر[1] .

وقد أخـذ العلماء من هـذا الحديث أن لقـاء الأموات يكون بمـجرد الموت ، وإلا لو كـان اللقاء فى البعث والقـيامة لاسـتوى فى ذلك مَنْ مات أولاً ، ومَنْ مـات آخراً ، فـدلَّ قوله : « ستكونيـن أول أهل بيتى لحوقاً بى » على أن لقاءه ﷺ بها سيكون بمجرد أنْ تموت .

الشـاهد فى هذه القـصـة أن أحـدهم ـ أظنه الإمـام علياً ـ قـال لفاطمة : الله يقول ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكى كربه .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٧٧ ، ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة ابنته فسارَّها فبكت ، ثم سارَّها فـضحكت ، فقالت عائشة : فـقلت لفاطمة : مـا هذا الذى سـارك به رسـول الله ﷺ فـبكيت ، ثم سـارك فـضـحكت ؟ قـالت : سـارنى فأخبرنى بموته فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول من أتبعه من أهله فضحكت .

أما السيدة زينب[١] فتزوجت العاص بن الربيع[٢] قبل أنْ يُحرَّم الزواج من الكفار ، وقد أُسر العاص في غزوة بدر ، فذهبتْ زينب لتفديه ، وقدمتْ قلادة كانت معها ، فلما رآها رسول الله وجد أنها قلادة خديجة - رضي الله عنها - قد وهبتْها لابنتها ، فقال : إنْ رأيتم أنْ تردوا لها قلادتها وتفكُّوا لها أسيرها فافعلوا ، فردَّ ﷺ الأمر إلى مَنْ ينتفع به ، فتنازلوا عن القلادة[٣] .

أما رقية وأم كلثوم فلهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها حوادث مبهجة ، أما المؤسف فإنَّ عتبة بن أبى لهب عقد على رقية ، وأخوه عتيبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فلما بُعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبين أبى لهب وأنزل الله تعالى:
﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ [المسد]

قال لابنه عتبة : رأسي ورأسك علىَّ حرام حتى تُطلِّق رقية فطلَّقها ، بعدها مَرَّ عتبة على رسول الله ، وفعل فَعْلةً فيها استهزاء برسول الله ، فقال له ﷺ : « أكلك كلب من كلاب الله »[٤] .

---

(١) زينب بنت سيد البشر محمد بن عبد الله ، كبرى بناته ، تزوج بها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع ، ولدت له عليا وأمامة ، فمات على صغيراً ، وبقيت أمامة فتزوجها على بن أبى طالب بعد موت فاطمة الزهراء . توفيت زينب عام ٨ هـ ، أى قبل وفاة رسول الله بعامين . [الاعلام للزركلى ٣/٦٧] .

(٢) هو : أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، صحابى ، زوج زينب كبرى بنات النبى ﷺ ، تزوجها فى الجاهلية بمكة وتأخر إسلامه ، فكانت عند أبيها بالمدينة وأسلم فأعيدت إليه . غلب عليه لقب (أبو العاص) وكان يلقب « جرو البطحاء » ويقال له «الأمين» توفى عام ١٢ هجرية . [الاعلام للزركلى ٥/١٧٦] .

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١٠/٣١) ، أسره عبد الله بن جبير فى بدر ، وجاء أخوه عمرو بن الربيع ليفتديه ، وبعثت معه زينب بنت رسول الله ، وهى يومئذ بمكة بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوج بها .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صِدْق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يُرَدُّ ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحتاط له ، ويوصى به رفاقه فى رحلات تجارته ـ وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلاً كان عتبة فى رحلات التجارة ينام فى وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفى إحدى الليالى جاءه أسد ، فأخذه من بين القوم ، ولم يَبْقَ منه إلا ما يُعرف به .

علَّق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال : إن رسول الله قال : « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد العارفين فقال : إذا نُسب الكلب إلى الله ، فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل : كلب مَن كلابكم ، إنما من كلاب الله[1] .

هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتيبة فقد طلَّق أم كلثوم ، لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا : إنه كان يستحى أنْ يواجه رسول الله ، لذلك لم يَدْعُ عليه رسول الله .

أما الحادث المبهج فى حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتيبة ، حيث تزوجت رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدها من أم كلثوم ؛ لذلك لُقِّب ـ رضى الله عنه ـ بذى النورين ، وكانت النساء يُغنين حين تزوج عثمان برقية :

أَحْسَنَ مَا رأى إنْسَانٌ رُقَيَّة وزوجُهَا عُثْمَانُ[2]

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح ، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وقال مالك فى الموطأ : كل ما عقر الناس وعدا عليهم وأخافهم مثل الأسد والنمر والفهد والذئب هو العقور . [انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤/٣٩] .

(٢) لفظ تفسير القرطبى (٨/٥٥١٠) :

أحسنُ شخصينْ رأى إنْسَانُ رُقيّةُ وبعلُها عُثْمانُ

فانظر إلى عظَم هذا العوض أنْ يُبدلَهُمَا الله بعتبة وعتيبة مَنْ ؟ عثمان ، نعم العوَض هذا ، والعوَض فى مثل هذه المسائل إنما يتأتَّى بقبول القضاء فى نظائره ، فإذا أُصيب الإنسان فاستسلم وسلَّم الأمر لله ؛ فقال كما علَّمنا رسول الله : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أجرْنى فى مصيبتى - أيّاً كانت هذه المصيبة - واخلُفْنى خَيْراً منها »[1] .

إذا قال ذلك وعلم أن لله حكمة فى كل قضاء يقضيه لا بُدَّ أنْ يُعوِّضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة فى هذا المقام ، فلما توفى زوجها أبو سلمة حزنتْ عليه حزناً شديداً ، ولما جاءها النسوة يُعزِّينها فى زوجها قالت إحداهن : يا أم سلمة ، قولى كما قال رسول الله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أْجرنى فى مصيبتى ، واخْلُفْنى خيراً منها ، فقالت : وهل هناك خير من أبى سلمة ، يعنى : هو فى نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رضيَتْ بقضاء الله فما انقضَتْ عدَّتها حتى طرق عليها طارق يقول : يا أم سلمة ، إن رسول الله ﷺ يخطبك لنفسه ، فضحكتْ لأن الله عوَّضها بمَنْ هو خير من أبى سلمة[2] .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩١٨) كتاب الجنائز من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٩/٦) .

(٢) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٨٧/١٠) من حديث أم سلمة أن أبا سلمة لما احتُضر قال : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير ، فلما قبض قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فاجرنى فيها ، وأردت أن أقول : وأبدلنى بها خيراً منها ، فقلت : من خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها . فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته . ثم خطبها عمر فردته ، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت : مرحباً برسول الله وبرسوله . الحديث .

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبى وبناته أولاً بهذا الأدب ثنَّى بنساء المؤمنين ، فقال ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء) فمفردها من معناها ، لا من لفظها ، فتقول : امرأة ، واستُثْقل جمع امرأة على امرآت فقالوا : نساء وأصلها فى اللغة من النسيء ، قالوا : لأن المرأة أُجِّلَ خَلْقُها بعد خَلْق الرجل . وفى اللغة : النَّسْء أى : التأخير والتأجيل ، فقالوا : نساء .

ثم يذكر سبحانه الأمر الذى وُجِّه إلى زوجات النبى ، وبناته ونساء المؤمنين جميعاً ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] فالفعل ﴿ يُدْنِينَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] مجزوم فى جواب الطلب (قُلْ) مثل : اسكُتْ تسلَم ، ذاكر تنجح ، وفى الآية شرط مُقدَّر : إنْ تَقُلْ لهُنَّ ادنين يُدنين .

كما فى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] لأن الخطاب هنا للمؤمنات ، وعلى رأسهن أزواج النبى وبناته ، وإنْ لم يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختلَّ فيهنَّ شرط الإيمان .

ومعنى : الإدناء : تقريب شيء من شيء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ثمار الجنة ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحاقة] أى : قريبة التناول سَهْلة الجَنْى ، والمراد : يُدنين جلابيبهن أى : من الأرض لتستر الجسم . وقوله : ﴿ عَلَيْهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] يدل على أنها تشمل الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض .

وكلمة ﴿ جَلَابِيبِهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] مفردها جلباب ، وقد اختلفوا في تعريفه فقالوا : هو الثوب الذي يُلْبس فوق الثوب الداخلي ، فتحت الجلباب مثلاً (فانلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابغاً طويلاً قريباً من الأرض[1] .

وقالوا : الجلباب هو الخمار الذي يغطي الرأس ، ويُضرب على الجيوب - أي فتحة الرقبة - لكن هذا غير كاف ، فلا بُدَّ أنْ يُسدل إلى الأرض ليستر المرأة كلها ؛ لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر .

وشرط في لباس المرأة الشرعي ألاَّ يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلْفتاً للنظر ؛ لأن من النساء مَنْ ترتدي الجلباب الطويل السَّابغ الذي لاَ يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه ضيِّق يصف الصَّدْر ، ويصف الأرداف ، ويُجسِّم المفاتن ، حتى تبدو وكأنها عارية[2] .

لذلك من التعبيرات الأدبية في هذه المسألة قَوْل أحدهم - وهو على حق - إنَّ مبالغة المرأة في تبرُّجها إلحاح منها في عَرْض نفسها على الرجل . يعني : تريد أنْ تُلفت نظره ، تريد أنْ تُنبِّه الغافل وكأنها تقول : نحن هنا . وإنْ تساهلنا في ذلك مع البنت التي لم تتزوج ،

(١) وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسيره (٥٥١١/٨) قال : « الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع ، والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن » .

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (١٨٧/٤) من حديث دحية بن خليفة الكلبي أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى هرقل ، فلما رجع أعطاه رسول الله ﷺ قُبْطية (ثوب مصري) فقال : اجعل صديعها (نصفها) قميصاً ، وأعط صاحبتك (امرأتك) صديعاً تختمر به ، فلما ولى قال : مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي : « فيه انقطاع » .

ربما كان لها عُذْر ، لكن ما عذر التى تزوجت ؟

ثم يُبيِّن الحق - تبارك وتعالى - الحكمة من هذا الأدب فى مسألة اللباس ، فيقول : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : إدناء الجلباب إلى الأرض ، وستر الجسم ، وعدم إبداء الزينة ﴿ أَدْنَىٰ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أقرب ﴿ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

فالمرأة المسلمة تُعْرف بزيِّها وحِشْمتها ، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك : إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذى ينتظر إشارة منك ، وليست ممَّنْ يَعْرِض نفسه عَرْضاً مُهيِّجاً مستميلاً مُلْفتاً .

وقوله تعالى بعد ذلك وفى ختام الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب] جاء وَصْف المغفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعى ، فما سبق هذا الأمر من تجاوزات مغفور معفوٌّ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك المؤمنة بعد أنْ تسمع هذا الأمر بإدناء الجلباب والتستُّر .

والحق سبحانه بمثل هذا الأدب إنما يُؤمِّن حياة المرأة المسلمة ، كيف ؟ نقول : معنى التأمين أنْ نأخذ منك حال يُسْرك ، وحين تكون واجداً ، لنعطيك حينما تكون غير واجد .

كذلك الإسلام حين يستر جمال المرأة ومفاتنها حال شبابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى الجمال ، ويحلُّ محلَّه أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام فى هذه الحالة يحمى المرأة ويحفظ لها عِزَّتها .